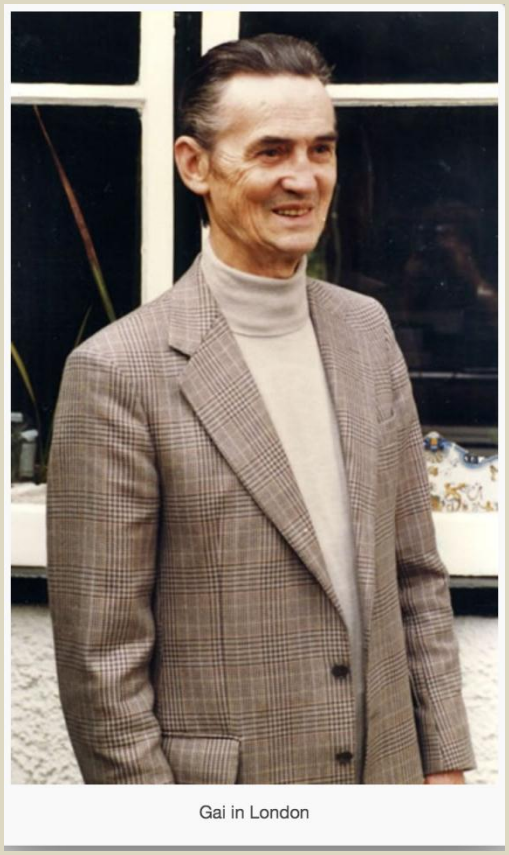

Gai in London

صوفيٌّ إسمه

حسن عبد الحكيم

أنسام لندن الباردة تلفح وجهي وأنا أغذ خطىً مرحة مع صديقةٍ بريطانية من أصل جمايكي إلى مركز ريجنتس بارك الإسلامي لأقابل الإنسان الذي أسلمَت على يده. كنت في مقتبل العمر وكلّي توقٌ إلى أن أعرف كل شيءٍ عن كل شيء.. لذا فعندما أخبرتني أن من أسلمت على يديه أستاذٌ صوفيٌّ أخبرتها أنني أتمنى أن أقابل متصوفاً منذ أن بدأت أقرأ لفيلسوف الإسلام الرائع أبي حامد الغزالي.. كنت آنذاك أظن أن الصوفية فكراً صرفاً غير مقترنٍ عند بعضهم بطقوسيات غريبة..

أخبرته صديقتي بي فرحب بزيارتنا لمكتبه بالمركز. كان بريطانياً من أصلٍ سويسري أسلم في مصر على يد انجليزيّ آخر.

لم يكن مرتدياً ثوباً مهترئاً من الصوف كما تخيلت وإنما بدلةً عادية. بدا لي خمسينياً أو ستينياً في منتهى الوداعة والتهذيب.. أجاب أسئلتي القليلة.. ثم عن سفر الفتاة للدراسة قال إنه متفائل بنساء الأمة أكثر من رجالها، ومن ثم فهو يؤمن بأهمية سعي المرأة إلى العلم أينما كان ومهما وجدت من صعوبات. سألته عن حجته في ذلك فقال

ما معناه - وهذا أجمل ما سمعته منه آنذاك - المرأة المثقفة لها تأثير على مجتمعها وأسرتها، والإنسان المؤثر خير من غير المؤثر.

سألته في النهاية إن كان يريد شيئاً من قطر وكنت سأسافر إلى شمال بريطانيا ثم أعود إلى الدوحة فتردد ثم أخبرني بشيءٍ ما ولكني لم أعرف تماماً ما يريد ونسيت أن أسأله قبل أن أتركه ماذا أراد.. نويت أن أتصل به قبل مغادرة لندن، وكذلك بعد السفر لأستفهم منه، ولكني شغلت وأرجأت الأمر.. أرجأته كثيراً.. إلى أن ضاعت الأرقام وضاعت كل العناوين، ولم أعد ثانيةً إلى لندن، ومرّ ما لا يقل عن.. عشرين سنة..

كنت أتذكر ذلك الوعد القديم لذلك الإنسان كلما مرت بضعة أعوام فأستاء لأني تقاعست في الإتصال به لسؤاله ماذا أراد في الوقت المناسب وأشعر بالأسى لأني خذلته ولم يعلم بأن الأمر قد التبس عليّ ونسيت ما قال.. وصديقتي تلك عدت لا أعرف لها عنواناً لأنها غيرت سكنها، ولا أعرف من ثم كيف أتصل به لأسأله.

في منتصف ٢٠١٣ ذكرته ثانية ودهشت أنه قد مضى عشرون عاماً على الأقل، وتذكرت فجأة أنني أستطيع البحث عنه بواسطة الإنترنت.. وفي لحظةٍ ما قررت ألا أضيع ثانيةً أخرى لأنه إن مات ذلك الرجل الطيب قبل أن أعتذر له على الأقل فلا أعلم ما سأشعر به، وإن كان من شبه المؤكد أنه قد نساني..

وهكذا جلست أمام الكمبيوتر لأبحث عنه. لا أذكر لقبه، ولكني وفق ما أتذكر كان إسمه الذي اختاره لنفسه حسن عبد الحكيم. لم أنس "حسن" لأنه إسم شقيقٍ لي مات في طفولته قبل أن أولد، وكانت أمي دائماً تتحدث عن جماله، أما "عبدالحكيم" فقد ثبت في ذاكرتي لندرته إذ لم أر في حياتي إلا اثنين بهذا الإسم أحدهما هو. وكان هذا الإسمان كل ما لديّ من معلوماتٍ عنه فإن خانتني الذاكرة فيهما فقد فقدت أثره تماماً.

كتبت اسمه في غوغل، وبحثت في الصور أولاً، لأتأكد من صحة الإسم.. وعندما برزت صورته وجدت الإسم الأخير المنسي؛ "إيتِن". وكانت الصورة مرافقةً لخبر فعاليةٍ ما قد تكون متعلقة بكتابٍ جديدٍ له على ما أذكر. وكان له وفق هذا الخبر عددٌ من الكتب في الصوفية والإسلام أشهرها "الإسلام ومصير الإنسان" الذي اهتدى به

كثيرون إلى الإسلام، وذهلت بحجم هذا المفكر ومقولاته التي سمعت بعضها في محاضرة له وتوقعت أني إذا قرأت له أو شاهدت محاضراته فسأجد مقولات أهم من تلك التي سمعتها منه مباشرة عن قيمة المرأة المؤثرة.

نسخت الإسم وذهبت به إلى ويكيبيديا لأجد عنوانه.. هناك توقف الكون تماماً فجأة وغمرني شعورٌ غريبٌ كالقشعريرة من أخمص قدميّ حتى جذور شعري.. كان قد مات قبلها بثلاث سنين تقريباً..

دعد خليفة

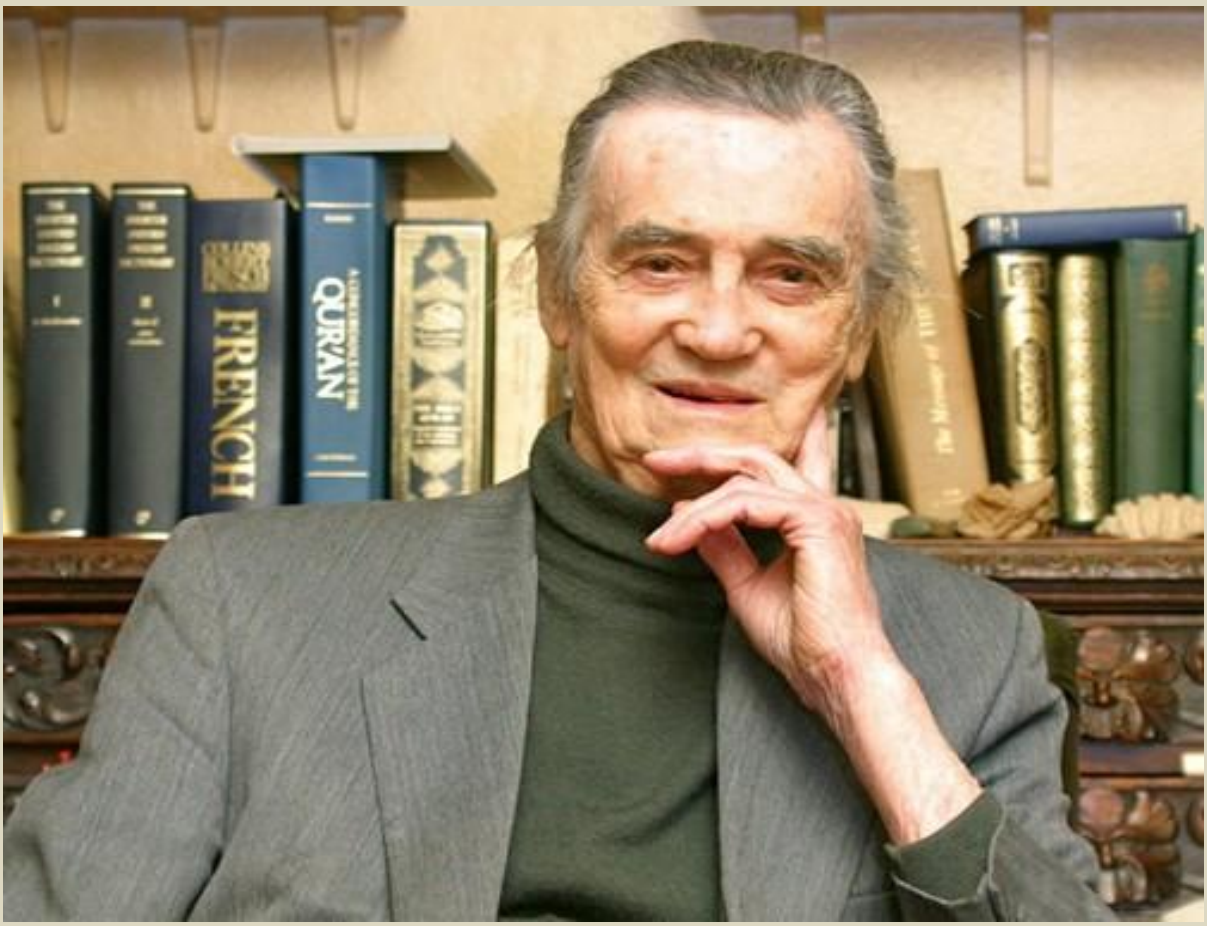

نشر هذا المقال بالملحق الثقافي لجريدة الشرق القطرية تحت عنوان "السنين" بتاريخ ٢٣/٢-٢/٣/٢٠١٤م
أُخِذَت الصورتان من موقع الدكتور حسن عبد الحكيم (Gai Eaton)
عنوان الموقع:/http://www.gaieaton.com